ثقافة الداخل: سؤال ما بعد الهُويّة

سلمان ناطور*

يمكن القول إنّ الثقافة الفلسطينيّة في الداخل (مناطق 48) تجاوزت سؤال الهُويّة والانتماء، ففي خلال ستّين عامًا ونيّف قطعت، في هذا الشأن، مرحلتين قاسيتين/ نضاليّتين بعد ما أصابها في النكبة. المرحلة الأولى تثبيت هُويّتها العربيّة في ظل هيمنة احتلاليّة أحدثت قطيعة بينها وبين الشجرة الأمّ، الثقافة العربيّة، بفرض حصار محْكم منع أيّ شكل من أشكال التواصل الثقافيّ إلاّ ما كان يتحقّق عبر أثير المحطّات الإذاعيّة العربيّة، وعبر تسلُّل بعض الكتب، وبمحاولات منهجيّة لإشاعة عدميّة قوميّة ثقافيّة بتهويد وعبرنة المعالم الحضاريّة وحتّى الدعوة لكتابة العربيّة بالعبريّة، وكان ما أطلقه محمود درويش "سجّل أنا عربيّ.." في مطلع الستّينيّات مانيفست تأكيد الانتماء للدخول في المرحلة الثانية، وهي الانتماء الوطنيّ الفلسطينيّ الذي انتعش بعد حزيران 1967 وتجلّى بقوة في يوم الأرض عام 1976، وقد صقلته الانتفاضة الأولى بمشاركة فاعلة من جماهير الداخل، لا تضامنًا مع الشعب الفلسطينيّ -وإن كان يبدو كذلك-، بل فعلاً نضاليًّا اختلف بأدواته لا بأهدافه.

إذا كنّا في الماضي نطلب من أنفسنا، أو يتوخى منّا أشقاؤنا، أو يستفزّنا الآخر الإسرائيليّ لتأكيد "أنّنا جزء لا يتجزّأ من الشعب الفلسطينيّ، فاليوم نعفي أنفسنا من هذا الواجب العبثيّ ونطرح علينا وعلى الغير أسئلة الثقافة بما هو بعد الهُويّة وليس في سياقها العامّ.

السؤال الأوّل: ما هي فضاءات هذه الثقافة؟

يشكّل الحيّز المكانيّ (الداخل) ضائقة فيزيقيّة تعيق التحرّك الثقافيّ في المساحة الجغرافيّة، ولذلك فإنّ هذه الثقافة تبحث عن فضاءات تشكّل أفقها المفتوح واللا مشروط، وهي ثلاثة: الفضاء الفلسطينيّ والفضاء العربيّ العامّ والفضاء الكونيّ. معركة الثقافة الفلسطينيّة في الداخل هي اختراق الحصار للتحرّك الحرّ في هذه الفضاءات، وهذا يعني تجاوز كلّ المعيقات اللا ثقافيّة ومنها السياسيّة (الخشية من التطبيع مع العدوّ) والبيروقراطيّة والتهميش. ويعني أيضًا التعامل الفلسطينيّ والعربيّ العامّ مع هذه الثقافة من منطلق وحدة الثقافة الفلسطينيّة والعربيّة وليس التواصل معها، لأنّ الذات لا تتواصل بالذات ولا تفترق عنها، فالذات هي وحدة واحدة، فلسطينيًّا وعربيًّا، وأمّا التواصل فهو في الفضاء الثالث الكونيّ.

التحليق في الفضاءَيْن الفلسطينيّ والعربيّ يعني ألاّ يُنظر إلى الثقافة الفلسطينيّة في الداخل باعتبارها حالة يُتْم ثقافيّ تحتاج إلى عناية خاصّة أو إلى عطف أبويّ، بل باعتبارها قادرة على أن تكون ركنًا أصيلاً من أركان الثقافة العربيّة بشكل عامّ والفلسطينيّة بشكل خاصّ، وإدراك دورها التاريخيّ في حماية ما تبقّى من الحضارة العربيّة الفلسطينيّة في هذا الجزء من الوطن وفي كونها تناضل على الخطّ الأماميّ في مواجهة الصهيونيّة فكرًا وممارسة. وبالتالي هي كذلك نتاج مجتمع قادر على خلق حالة ثقافيّة مميّزة يمكنها أن تثري بما تعطيه وتحتاج إلى إثراء دائم من الثقافة الأمّ، وبقدر تراكم هذا الإثراء فإنّ تحليقها في الفضاء الكونيّ سيكون ميسّرًا وطبيعيًّا بما تحتويه من مضامين وقيم إنسانيّة. كلّ ذلك يعني أنّ المشروع الثقافيّ لفلسطينيّي الداخل يجب أن يكون مشروعًا حداثيًّا، متطوّرًا بأدواته الإبداعيّة ومنفتحًا بآفاقه ورؤاه الفكريّة والفلسفيّة. أن نكون جزءًا أصيلاً من مشروع قوميّ وكونيّ يعني التحرّر من القيود التي تحدّ من حركة الثقافة، ولا سيّما الرقابة على الفكر والتفكير النمطيّ، ويعني أن يُنظر إلى المشروع الثقافيّ باعتباره مشروع تحرّر أوّلاً.

السؤال الثاني: ما هي خصوصيّة هذه الثقافة؟

ليس هناك ثقافة مجرّدة من الزمان والمكان. ولكلّ ثقافة خصوصيّتها في زمانها ومكانها مَهْما كانت شموليّة وإنسانيّة، وفي كثير من الأحيان تكتسب الثقافة أهمّيّتها من هذه الخصوصيّة. لثقافتنا

خصوصيّة نتميز بها عن سِوانا عربيًّا وعالميًّا وهي أنّنا نبني ثقافة في ظروف استثنائيّة ليس لها مثيل في العالم. نحن أقلّيّة قوميّة تحت نظام أنشأته أكثريّة مسيطرة تَعتبر نفسها قوميّة واحدة، ولكن هذه الأكثريّة هي أقلّيّة قوميّة في محيطنا العربيّ العامّ، والأكثر مفارقةً هو أنّ هذه الأكثريّة الحاكمة هي من المهاجرين ونحن (الأقلّيّة) سكّان البلاد الأصليّون. هذا واقع سياسيّ استثنائيّ، فما هي تجلّياته وتحدّياته الثقافيّة؟

العلاقات بالآخر اليهوديّ الإسرائيليّ. من هو؟ - علاقة معرفيّة باعتباره جزءًا من المشهد اليوميّ وهو، أي الآخر، موضوع معرفيّ يثير حبّ الاستطلاع ويستحضر الأسئلة عن هُويّته وتاريخه وعقيدته وأفعاله ليس بمفهوم مخابراتيّ (أي "اعرف عدوّك")، بل بمفاهيم علميّة وأكاديميّة وفلسفيّة. هل يمكن أن أتعايش معه؟ - علاقة أخلاقيّة تثير السؤال القاسي: كيف تتعايش الضحيّة مع جلاّدها؟ هذا كان ولا يزال محور الثقافة الفلسطينيّة في الداخل منذ النكبة حتّى اليوم، ونجده في معظم النصوص الأدبيّة الفلسطينيّة بتجلّيات مختلفة. ما هو مستقبلنا هنا وما هو مستقبله؟- علاقة وجوديّة تستدعي طرح كلّ الأسئلة الصعبة حول الحاضر والمستقبل، لأنّ الواقع السياسيّ ليس مستديمًا، وهو قابل للتغيّر بفعل حركة التاريخ التي يبدو أنّها تنقل "المسألة اليهودية" من أوروبا القرن التاسع عشر إلى الشرق العربيّ في بدايات القرن الحادي والعشرين. ثقافتنا في حوارها مع الآخر أو اشتباكها معه هي الوحيدة التي تستطيع أن تطرح حلاً إنسانيًّا لهذه الحالة كي لا تقع، هي أو هو، في خطايا الأوروبيّ الذي جرفته النزعات القوميّة إلى تهلكة وجرائم لا تُغتفر، كنّا ولا نزال نحن آخر ضحاياها.

السؤال الثالث: أين نحن من الرواية التاريخيّة؟

لنا ذاكرتنا الجمعيّة، هي ذاكرة الحيّز مكانًا وتاريخًا، وهي الفصل الأهمّ في الرواية الفلسطينيّة، لأنّنا شاهدون على ما يحدث للمكان المغيَّب معظم أهله عنه ويتوقون للعودة إليه. يتآكل المكان ويتقلّص الحيّز ويتبدّل ويختفي منه الكثير يومًا بعد يوم أمام أنظارنا؛ فمن يوثّق ذاكرته غيرنا؟ الغائب عنه أم الحاضر فيه؟ قد نعجز عن وقف هذا التآكل رغم كلّ ما نبذله؛ ولكن هل نعجز عن توثيق ذاكرته؟

هذه هي أسئلة الثقافة الفلسطينيّة في الداخل ما بعد الهُويّة، الأسئلة التي يفرزها وضوح الهُويّة، وإذا اتّجه الشعب الفلسطينيّ بعامّته لصياغة مشروع ثقافيّ موحّد، فلا بدّ أن تكون هذه الثقافة ركنًا من أركانه بغضّ النظر عن أيّة تسويات سياسيّة على الأرض. وأمّا إذا سيّرنا التاريخ نحو الدولة العَلمانيّة الديمقراطيّة الواحدة، فسيكون منجزنا الثقافيّ محرِّكًا يدفع بعجلة التاريخ.

* **سلمان ناطور** هو أديب روائي ومسرحي من دالية الكرمل.